النص الأدبي الشعبي ووسائل الإعلام
(قراءة في الأهداف والنتائج)

Folk literary text and mass media

أ.رمضـــان حينـــــوني
المركز الجامعي لتامنغست
(*ramhin@yahoo.fr*)

ملخص البحث

هذا بحث يتناول الحديث عن الأدب الشعبي ودور وسائل الإعلام الحديثة في الترويج له وبعثه، وخدمته بشتى أنواع البرامج التي تترجمه إلى أدب مرئي ومسموع ومقروء، من خلال تجسيده في أفلام ومسلسلات، وحصص إذاعية، ومقالات في الصحف، وغير ذلك، في قالب يجذب المشاهد ويربطه بالحدث. مع بيان وتحليل الدور الواقعي الذي تقوم به وسائل الإعلام حيال هذا الأدب، سلبا أو إيجابا.

Abstract

This research deals with talking about the folk literature and the role of the new media in its promotion, rising it and servicing it by various types of programs, which translate it to visual and audible literature, through reflecting it in movies, series, quotas, radio, and newspaper articles, and so on, in a form that attracts the viewer and links him to the event, along with the statement and analysis of the real role played by the media on this literature, positively or negatively.

Résumé

Le texte littéraire populaire et les médias

Cette recherche aborde la littérature populaire et le rôle des nouveaux médias de répandre le texte littéraire populaire, de le faire connaître et de le mettre en service par divers types de programmes, pouvant le traduire à une littérature visuelle et sonore par le biais d'une mise en films et feuilletons, emissions radiodiffusées et aussi par la publication d'articles de journaux, etc. sous la forme qui attire le spectateur et l'associe à l'événement. Le présent article met aussi en lumière la mission et le rôle réel joué par les médias au sujet de cette littérature positivement que soit ou négativement.

تمهيد:

إذا كانت وسائل الإعلام الحديثة، وخاصة التلفزيون، أكثر ميلا إلى إبراز ما توصل إليه الإنسان من مدنية وتكنولوجيا، عبر نقل الواقع، والتنبؤ بما سيحدث في المستقل، فإنها من جهة أخرى أضحت من أهم الوسائل إبرازا ونشرا للأدب الشعبي، ممثلا خاصة في القصص والأساطير الشعبية التي كانت الجدات والقصاصون من مروجيها الأساسيين في عصور خلت. ولقد لعبت الدراما والمسلسلات دورا كبيرا في ذلك؛ لما تتصف به من تجسيد للقصة وأحداثها في قالب يجذب المشاهد ويربطه بالحدث.

كما نجد للجرائد والمجلات والقنوات المرئية المتخصصة في الأدب الشعبي دورا محمودا في لفت الانتباه إلى عبقرية المبدع العامي.

ولما كان لوسائل الإعلام ذلك الدور الخطير على مستوى التأثير الاجتماعي والثقافي، فإنه لا بد أن ينظر المرء إلى ارتباطها بالأدب الشعبي من زواياه المختلفة: زاوية المنفعة وإبراز إنتاج العامة، والكشف عن قيمه المختلفة، وزاوية الإساءة إليه عبر تحجيمه في التسلية والمرح، وزاوية الإساءة إلى الأدب الفصيح من خلال التضييق عليه، وتعويضه في التعبير عن قضايا الناس.

قد يكون صحيحا أنّ وسائل الإعلام لا تتحمل بالضرورة القراءة السلبية للمنتوج الشعبي، إذ إن دورها التاريخي هو تقديم المادة الإعلامية المنوعة للمستهلك، على أن يأخذ هو ما يحتاجه منها، مثلها مثل أية بضاعة تعرض، وعليه، فإنه من المنطقي أن تكون ثقافة المستهلك وطبيعة التفكير عنده هي الفيصل في سلبية أو إيجابية النص الشعبي المسخر إعلاميا. لكننا من جهة أخرى نلمس أحيانا توجيها مقصودا لبعض الإنتاج الشعبي نحو وجهة معينة قصد تحقيق غرض سياسي أو فكري مدروس، الأمر الذي لا يبرئ وسائل الإعلام دائما.

ويحاول هذا المقال أنْ يتناول الأدب الشعبي وعلاقته بوسائل الإعلام الحديثة، ويجيب عن جملة من التساؤلات، من أهمها: ما أسباب اهتمام

الدراما والتلفزيون بالقصة الشعبية في وقتنا الحالي؟ وهل استطاع أن يقربها إلى المشاهد العربي؛ بحيث تخدم هدفا معينا، أم أنه شوّهها، وجعلها أقرب إلى التسلية منها إلى النص الهادف؟ وهل حافظت الدراما الشعبية على خصائصها الزمنية أم امتزجت بمتطلبات العصر لغة وهدفا ؟

وسائل الإعلام ورسالة الأدب الشعبي:

ولما كان لوسائل الإعلام ذلك الدور الخطير على مستوى التأثير الاجتماعي والثقافي، فإنه لا بد أنْ ينظر المرء إلى ارتباطها بالأدب الشعبي من زواياه المختلفة: زاوية المنفعة وإبراز إنتاج العامة، والكشف عن قيمه المختلفة، وزاوية الإساءة إليه عبر تحجيمه في التسلية والمرح، وزاوية الإساءة إلى الأدب الفصيح من خلال التضييق عليه، وتعويضه في التعبير عن قضايا الناس.

ولا يجادل اثنان في أنّ الأدب الشعبي كغيره من حقول المعرفة من حقه أنْ يبحث عن المنابر التي يصل من خلالها إلى الجمهور، مثل الإذاعة والتلفزيون، بل حتى الصحف والمجلات أحيانا، خاصة أنه أقرب إليها من حقول معرفية كثيرة بوصفه يتخذ من العامية أو الدارجة وسيلة للتعبير. وهي الوسيلة التي تتعامل بها جميع شرائح المجتمع خارج إطار المؤسسات العلمية. وعليه، فإننا ونحن نتحدث عن الأدب الشعبي، نتحدث عن أمر واقع لا مجال لرفضه، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من دراسته دراسات علمية أكاديمية، تقف على ملامحه وخصائصه وفنياته، وبدرجة أكبر على رسائله التربوية والتثقيفية، كونه صادرا في الغالب عن حنكة وخبرة في الحياة.

وعلى الرغم من الإيمان برسالة الأدب الشعبي التي لا تختلف في جوهرها عن رسالة الأدب الفصيح، إلا أننا نلاحظ أنّ اقترانها بوسائل الإعلام الحديثة قد خلف جملة من الآراء المتضاربة حول تلك العلاقة؛ ففي الوقت الذي يرى بعضهم أنّ وسائل الإعلام قد أهملت الأدب الشعبي، وهمشته بوصفه إنتاج الجهلة والأميين والمجهولين، وانجذبت نحو الآثار الأدبية الكبيرة الفصيحة، أو إلى الاهتمام بالأمور السياسية والاجتماعية

ذات الصلة المباشرة بحياة الناس وهمومهم، يتجه فريق آخر إلى اتهامها بتكريس الأدب الشعبي بديلا عن الأدب الفصيح، مما يفتح الباب واسعا أمام تكريس الدعوة إلى العامية التي عملت أقطاب فكرية وثقافية عدة على محاولة فرضها على المجتمع وطرحها بديلا عن الفصحى، استجابة لجهود أمثال المستشرق الألماني (سبيتا)[1] وهم كثر، واستمرارا لمحاولات أمثال يعقوب صروف(1852 - 1927)[2] الذي كان يكتب مقالات في مجلة (المقتطف)، داعيا إلى نبذ العربية الفصحى، واتخاذ العامّية لغة الكتابة والعلوم، على غرار ما أحدثه الأوروبيون في اللغة اللاتينية، وهو النهج الذي اتبعه الخوري مارون غصن وأنيس فريحة وسعيد عقل، وغيرهم[3].

هذه المحاولات فُهمَ أنّ الهدف الأكبر منها هو هدم لغة القرآن الكريم، عن طريق صرف الناس عن الاهتمام باللسان العربي المبين، وتشجيع الآداب العامية التي تختلف من قطر إلى آخر، إلى الحدّ الذي يصعب على بعض العرب فهم لهجات بعض، لتباين كثير من مفرداتها وأساليب توصيل معانيها، كما أنّ الأدب الشعبي في نظر هذا الفريق ليس إلا ضربا من التسلية والترفيه عن النفس، وأحيانا من إضاعة الوقت، خاصة في قصصه وتمثيلياته وأشعاره.

ويرى الأديب أمين الزاوي أنه يشعر بنوع من إغتيال اللغة عبر تكسيرها، "وهذا ليس بسبب الشعر الشعبي وإنما بسبب وسائل الإعلام ودبلجة المسلسلات والأفلام، وحتى من بعض تفاسير القرآن الكريم والسيرة المكتوبة باللهجة العامية ... وهذا هو الخطر القادم على اللغة العربية وليس الشعر الشعبي."[4] ونفهم من ذلك أنّ النص الشعبي الأصيل لا يأتي منه الخطر، بقدر ما يأتي من النص الدخيل أو المفتعل، الذي يعمل على تكريس لغة بعيدة عن الأهداف التي ترام من النص الأدبي الشعبي بوصفه ذا حمولة فكرية، تستهدف إفادة القارئ وإمتاعه في آن.

وإذا تحرينا الإنصاف والموضوعية، قلنا إنّ جملة الأهداف المشبوهة من تشجيع وسائل الإعلام للأدب الشعبي السالفة الذكر صحيحة في

بعض المنابر الإعلامية الموجهة توجيها هادما، لكن ذلك لا يمنعنا من التمييز بين تلك الجهود، وجهود أخرى تنظر إلى الأدب الشعبي بوصفه منتوجا فكريا شعبيا له قيمته الفكرية، التي لا تكتفي فقط بالتبليغ والإفادة المباشرة، بل تتعدى ذلك إلى التعبير الفني والجمالي الذي ينعكس إيجابا على مستوى التأثير في السامعين، وتبليغ الرسائل إليهم.

والمقصود بالأدب الشعبي هنا ليس فقط ما تحتفظ به الذاكرة الشعبية من آثار قديمة احتوتها بطون الكتب المختلفة، وتناولتها بدراسات اجتماعية أو أنثروبولوجية أو غيرهما، بل يعمّ جميع إنتاج العامة ممن لا يستعملون الفصحى، من شعر وقصة وسير وما إليها. علما أن ثمة من يحاول استعمال نوع من اللغة هي أقرب من الفصحى لكنها بسيطة بساطة تخرج أدبها عن نطاق الأدب الفصيح. ولا يرى الروائي الجزائري أمين الزاوي أي إشكال في ذلك طالما أنه يوفر اللغة الشعرية التي " تكون جميلة حينما يتحقق فيها الجانب الدرامي بعيدا عن عمقها في الفصيح أو الشعبي الدارجي، والدليل أن أكبر أديب عربي وهو الطيب صالح كتب بالعامية."[5]

فالمادة الشعبية المقصودة إذن هي جملة الأجناس المعروفة في الأدب الشعبي، وليس الحديث العامي الذي يتعامل به في البرامج الإذاعية والمتلفزة، وما تتهم به الصحافة من نزول في مستوى اللغة لا يعود إلى الأدب الشعبي، بل إلى تبسيط اللغة؛ بحيث يراد لها أن تصل إلى شرائح واسعة من المجتمع. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأدب الشعبي يصبح مادة للإعلام لا ظاهرة فيه، وهذا الفصل بين الأمرين مهم جدا في حديثنا.

الدراما الشعبية في الإعلام المغاربي:

وإذا استثنينا اللقاءات الإذاعية أو المرئية مع أقطاب الأدب الشعبي، أو البرامج التي تتناول إنتاجاتهم، فإننا نجد تركيز وسائل الإعلام يكون غالبا على الموروث القصصي؛ لأنه يتحقق عبر عمل درامي يشد المشاهد إلى المتابعة، ويوفر له قدرا من الرغبة في استرجاع الماضي واستخلاص

الدروس أو في مجرد التسلية والترفيه بعد الانشغال الدائم بالأعمال والسعي في سبيل شؤون الحياة. وإذا أخذنا مسلسلي (جحا)[6] الذي بثته التلفزة الجزائرية في عدد من الحلقات، و(حديدان)[7] الذي بثته القناة المغربية الثانية، على سبيل المثال وجدنا أنّ الهدفين معا يمكن أن يتحقق فيهما بحسب الشريحة الاجتماعية التي تشاهده. فالبسطاء قد لا تعني لهم أحداثهما سوى الشخوص المتفننة في تجسيد ما يدور بين الناس من حديث عادي مكشوف لا تغطيه مجازات أو استعارات، بل من الممكن أن تغذيه بأساليب مستحدثة من الحركات الضاحكة التي تحجب في الغالب عن هذه الشريحة أهداف العمل الحقيقية.

أما الشريحة الثانية، فبإمكانها أن تغوص في العمل الدرامي الشعبي، وأن تراه من زاويته الإبداعية، لا من زاويته التمثيلية فقط. بل بإمكانها أن تتعامل كذلك مع جميع الإنتاج الشعبي، طالما أنها تعترف بأدبيته، وطبيعة إنتاجه.

إن الثروة الفكرية التي تعكسها الدراما الشعبية، من حيث كونها نصا أدبيا لتستدعي منا التأمل، فالعمل من هذا النوع لا يجسد فقط أحداثا في بيئة وزمان معينين، بل يبهرنا عادة بهذا الجمع بين القص وضرب المثل وطرح الألغاز ورواية الشعر بشكل يدعو إلى الاعتقاد بأن أجناس الأدب الشعبي كلّها أو أهمها تجتمع في نص واحد. وهذا التكثيف لا يدفع إلى أن يجد كلّ ضالته في المتعة فحسب، بل أيضا إلى الكشف عن قدرة المؤلف الشعبي على توظيف أجناس عديدة لغرض واحد، في شكل متداخل تداخلا تجانسيا لا نشوز فيه ولا تنافر.

وإذا أضفنا عامل التشخيص، فإننا أمام عمل يتموقع فيه الجمهور خياليا كلّ بحسب ميوله وتكوينه الفكري والشخصي، الأمر الذي يحقق التفاعل المطلوب، وبالتالي يحقق النص غايته. وهذا يحدث أيضا في الدراما الفصيحة، لكن قرب اللغة من الجمهور يحقق للنص الشعبي ما لا يتحقق للنص الفصيح، خصوصا خارج إطار النخبة الفصيحة، أين نجد

مستويات دنيا أو قريبة من ذلك ثقافيا لا تتعاطى إلا مع هذه المادة التي تجسد لها حياتها أو قيمها الحياتية، فتشعر أنها في قلب العمل الدرامي.

وبالعودة إلى النموذجين السالفي الذكر(جحا وحديدان)، فإن المشاهد لهما يسجل فرقا واضحا بينهما، له علاقة باختلاف النظرة إلى الأدب الشعبي وعلاقته بوسائل الإعلام. فالأول، يبدو أقلّ دعوة إلى الضحك والسخرية، وأكثر ميلا إلى تمرير الرسائل الفكرية والتربوية، بينما يبدو الثاني أكثر نزوعا إلى الجانب الكوميدي والساخر، وعلى الرغم من أنّ القصة الأصلية واحدة، إلا أن النسخة الجزائرية احتفظت بالاسم المعهود لهذه الشخصية التراثية، بينما اختارت النسخة المغربية اسما مغايرا ومناسبا للبيئة المغربية.

إن تغيير اسم جحا إلى حديدان في حد ذاته قد يقرأ على أنه توجيه مقصود إلى التسلية والمرح بالدرجة الأولى، بحيث يشعر المشاهد أن الشخصية المنتزعة من التراث العربي المشترك، تحولت إلى شخصية تجسد المحلية في أجلى صورها، وبأدق تفاصيلها. وليس ذلك عيبا في ذاته، إذ من الممكن الجمع بين المرح وبين الأفكار العظيمة التي يراد لها أن تستقر في الذهن وتتغلغل في الوجدان، غير أنّ الفئة المستهدفة بالمشاهدة قد يكون لها دور أساس في تحقيق هذا الهدف أو ذاك.

الأدب الشعبي في وسائل الإعلام بين النقد والترحيب:

وبالنظر إلى المأزق الذي يعانيه النص الفصيح على مستوى المقروئية في الوطن العربي، واقتصار الحديث بين الناس في حياتهم اليومية على الدارجة، يعتقد كثير من المهتمين بالأدب الشعبي أنّ النص الشعبي بإمكانه أن يسدّ حاجة شريحة واسعة من المشاهدة والتتبع في وسائل الإعلام، خاصة أنّ الأمر لا يتعلق بالقراءة والتصفح بل بالمشاهدة التي هي أريح منهما وأسهل وربما أمتع، غير أن رأيا آخر يرى أن سيطرة طابع التسلية والترفيه يفرغ هذا الأدب الشعبي من محتواه العميق، ويجعل آثاره تنتهي بمجرد انتهاء المشاهدة أو الاستماع، والدليل على ذلك الاقتصار على التراث الفكاهي دون غيره، على الرغم من أنّ أكثر الآثار

الشعبية في تراثنا بعيد عن هذا المجال، ويحتل فيه الدين والحكمة والبطولات حيزا كبيرا.

وعلى كل حال، فإنه إذا كان لا بد أن نساير التيار الجارف الذي تمثله الدارجة وأدبها، فمن الخير للقائمين على الإنتاج النصي والإنتاج الفني على السواء أن يجعلوهما في خدمة المشاهد بفئاته المختلفة، ثقافيا خاصة، ليس فقط بربط الأجيال بعضها ببعض، ولكن أيضا بإبراز الحمولة الفكرية والجمالية للنص الشعبي، ورفعه إلى مستوى التداول الواعي.

قد يكون صحيحا أن وسائل الإعلام لا تتحمل بالضرورة القراءة السلبية للمنتوج الشعبي، إذ إن دورها التاريخي هو تقديم المادة الإعلامية المنوعة للمستهلك، على أن يأخذ هو بما يحتاجه منها، مثلها مثل أية بضاعة تعرض. وعليه، فإنه من المنطقي أن تكون ثقافة المستهلك وطبيعة التفكير عنده هي الفيصل في سلبية أو إيجابية النص الشعبي المسخر إعلاميا. لكننا من جهة أخرى نلمس أحيانا توجيها مقصودا لبعض الإنتاج الشعبي نحو وجهة معينة، قصد تحقيق غرض سياسي أو فكري مدروس، الأمر الذي لا يبرئ وسائل الإعلام دائما.

خـــــاتمة:

إذا كان الأدب الفصيح أدب الخاصة، فإن الأدب الشعبي هو أدب العامة، وهي الغالبة على أي مجتمع، وعليه فإن العناية بالأدب الشعبي التي نريد تكثيفها تهدف بالدرجة الأولى إلى تقريب الكلام الجميل والحكمة المركزة والدلالة الهادفة إلى أقرب شريحة ممكنة؛ ولا يتأتى ذلك إلا بوسائط الإعلام على اختلاف أنواعها. غير أنه لا بد من التنبيه إلى أنّ المادة الشعبية تملك من الخصائص ما يؤهلها للتكامل مع الأدب الفصيح في خدمة الإنسان، خصوصا في ظل طغيان الحياة المادية، وسعي الإنسان إلى مسايرة التطورات السريعة في بنية المجتمعات فكريا وثقافيا.

ومن المهم جدا التذكير بأنّ الأدب الشعبي لا يعني بالضرورة ما خلفه الأجداد فقط وما تحمله بطون الكتب القديمة من حكايا وقصص وأمثال

وغيرها، بل أيضا ما ينتجه الإنسان في حياته المعاصرة المتماشية مع الهائلة الطارئة. وعليه، فإن التجديد والإبداع والابتكار لا تنطبق فقط على الأدب الفصيح، بل تتعداه إلى كلّ تعبير يتعلق بحياة الناس وانشغالاتهم وأحاسيسهم التي تذكيها المقارنة بين الماضي والحاضر دون شك، لكنها تشق طريقها أيضا في اتجاه تلمس جوانب الحاضر واستشراف المستقبل.

الهوامش والمراجع المعتمـــــــدة

(1) هو الدكتور ولهلم سبيتا (1818ـ1883)، عمل مديراً لدار الكتب المصرية في أواخر القرن التاسع عشر، وأصدر كتاباً عام 1880م اسمه «قواعد اللغة العربية العامية في مصر» ركّز فيه على إثارة روح العنصرية ضد العربية. وتباكى على المصريين بسبب تشبثهم بالعربية الفصحى.

(2) أديب ومفكر لبناني، ولد في قرية الحدث بلبنان عام 1852، تولى رئاسة وإدارة مدرسي الأميركان في صيدا وطرابلس. وفي سنة 1876 أنشأ مجلة المقتطف في بيروت، ونقلت إلى القاهرة عام 1888، وظلت تصدر حتى وفاة صاحبها عام 1927. ركز أعماله على الدعوة إلى اعتماد المنهج العلمي في التفكير، سيرا على خطى المستشرقين.

(3) لمزيد من التوسع في هذه الجزئية، ينظر: رياض قاسم، اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، مؤسسة نوفل- بيروت، ط1، 1982. ص387 وما بعدها. وساطع الحصري، في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت، 1985. ص 29 وما بعدها.

(4 - 5) انظر المقال على الرابط:
http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=1170582.

(6) تمثيل حكيم دكار، والسلسة من بطولة الفنان حكيم دكار وسميرة صحراوي ولطفي بن سبع وإبراهيم رزوق وكمال كربوز وجمال دكار وإخراج عمار محسن.

(7) حديدان مسلسل كوميدي من التراث من تمثيل: كمال كاظمي وسعاد الوزاني وفاطمة وشاي وعائشة مناف، وغيرهم.